التجليات الكانطية في الفكر الأخلاقي–العربي المعاصر

أ/ خيرة عماري

أستاذة مساعدة قسم الفلسفة جامعة الجزائر–2–

يفترض في كل تفكير فلسفي أن يفعل ويّفعل وينفعل ويتفاعل مع كل أشكال تعاطي الفعل الفلسفي الممتدة عبر تاريخ الفكر البشري.و في خضم هذا التفاعل، لم يكف هذا التفيكر –في صيرورته– لحظة عن استدعاء هذا الموروث الناطق أحيانا باسم سقراط....في تهكمه أو أفلاطون....في مثاليته أو أرسطو....في منطقه حتى وهو يخوض أحدث الإشكالات الفلسفية التي أفرزها العصر ،إذ يبدوا أن حداثتها الزمنية لم تنل من أصالة الطرح الذي يفلت من الصيرورة التاريخية ويقذف بفكرنا في أحضان كل فلسفة تمسك بزمام الأسئلة الكبرى التي تستشكل الفكر البشري. فتتقاطع العصور والثقافات حين تلتف حول هذه الأطروحات، ولا تقل عندها راهنية سقراط أو أفلاطون وآخرون....ممن لم يشهدوا هذا العصر، عن راهنية من شهد هذا العصر أمثال دريدا، فوكو، هابرماس وآخرون....

وأمام التأخر في النهوض بالفكر الفلسفي العربي بنحو قرنين عن الفلسفة الأوروبية الحديثة، لم يصل هذا الفكر الفلسفي العربي – رغم مرور هذين القرنين – إلى الشكل المستقل تماما بطابعه المميز عن بقية الفلسفات المعاصرة بالنظر إلى الاتجاهات المتعددة داخل بنية هذه الفلسفة. ورغم أن هذه الاتجاهات صحية وضرورية بغية تفعيل العقل العربي ونضوجه أكثر فأكثر إلا أن العقل العربي ما زال يواجه مشاكل كثيرة؛ فعندما انطلقت الفلسفة العربية في عصرها الحديث لم تملك من أرضية ذاتية غير التاريخ الذي منه أسست بنيانها ثم تشعبت مع المدارس والمذاهب الفكرية الغربية، فجاء معظم التأليف عبر هذه المذاهب الغربية. وكانت فلسفة كانط واحدة من هذه المذاهب التي دار في

فلكها الفكر الفلسفي العربي عموما والفكر الأخلاقي بالخصوص مثلما دارت في فلكها العديد من أنماط الفكر الغربي، وأضحى استحضار فكر كانط من بديهيات كل نقاش فلسفي جاد يستضيف كانط إما استضافة استيتيقية تستأنس بالمتن الكانطي وتقارب أطروحاته، وإما استضافة ثائرة متمردة تعلن القطيعة مع النسق الكانطي وتسعى لتجاوز تصوراته....وبين جدل التقارب والتباعد، الحضور والتخفي تأتي المنطلقات الفكرية والأسس النظرية لتلعب دور الحسم في تحديد مدى قابلية فكرا لاحتواء أو إعلان القطيعة مع فكر كانط....وإذا كانت المنطلقات الفكرية لكل من كانط وفلاسفة الأخلاق العرب تبدوا — ظاهريا – مختلفة، فان تاريخ الفكر العربي كشف أن كانط قد حل بين ظهراني الفلسفة الأخلاقية عند العرب وفي ضيافة فلاسفة قرأوه، بما في القراءة من معاني الاحتواء والامتلاك أين يغدوا معهما المفكر ملكا لقارئه، فكان لكل قارئ من هؤلاء القرّاء –الفلاسفة العرب– "كانط" ـه[1] سوّاه بطريقته، أي بوضع أسئلة كانط في أفق قراءته، ومن منظور عربي لـ " الأنا" المختلف عن البناء الفكري والتاريخي والسوسيولوجي لفكر كانط.

وقد شكلت فلسفته النقدية " براديغم" للعديد من مشاريع فكرية لنهضة العالم العربي، وانطلقت من خلالها بحوث كثيرة تطلعت إلى إعادة النظر بشكل نقدي في علاقتها بهذا الموروث القديم منذ بداية هذه النهضة وصولا إلى الجابري في " نقد العقل العربي" وأركون في " نقد العقل الإسلامي ". والأمر ذاته يصدق على مباحثه في الأخلاق والسياسة والتربية والتاريخ التي تفاعلت بشكل أو بأخر مع مفاهيم وتصورات ومرجعيات رسمت البنية الفكرية للمفكرين العرب. وليس ذلك غريبا على فلسفة كان ظهورها منعرجا ابيستيميا للفكر الغربي، أن تحدث ذات الأثر في الفكر الفلسفي العربي. فكانط ذاته يشير إلى طبيعة العقل الذي يحتاج في بنائه وتشكله إلى الانطلاق من الآخر حين يقول في القضية الثانية من أطروحاته حول "فكرة تاريخ عالمي من وجهة نظر المواطنة الكونية" ما يلي: "عند الإنسان (الكائن العاقل الوحيد فوق الأرض) لم تحقق الاستعدادات

الطبيعية التي تعد لاستعمال العقل نموها الكامل في الفرد ولكن في النوع البشري فقط. "ففي هذا المعنى نفهم أن العقل يحتاج إلى تضافر المجهودات الفكرية من طرف كل أفراد الإنسانية ويحتاج إلى زمن طويل ليكتمل ويتحقق في شكله الأفضل أي عندما يحقق العقل.

فهل استدعاء كانط لدى فلاسفة الأخلاق العرب يندرج ضمن هذا السياق التكويني للعقل الكوني؟ أم أنهم استدعوا كانط لأنهم وجدوا في فكره ما يستجيب لتطلعاتهم الإنسانية في ظل تعثر اغلب المشاريع الفكرية النهضوية في العالم العربي ؟

ولتقصي شكل وطبيعة هذا الحضور الكانطي، نحاول تتبع الآثار الفلسفية العربية الراهنة بدءا بالتي **ترجمت** كتبه، ثم التي **علقت أو درست** النصوص وبحثت في فلك الكانطية، مراعين في ذلك التقسيم الكلاسيكي المعتمد عليه في الفلسفة الكانطية:

أ)- الفلسفة النظرية: التي يمثلها "نقد العقل الخالص " ومبادئه النقدية.

ب)- الفلسفة العملية: والتي تضم خاصة "نقد العقل العملي" ومقدمة propédeutique لميتافيزيقا العادات.

ج)- الفكر الجمالي واللاهوتي والذي يضم بالخصوص "نقد ملكة الحكم"، " الدين في حدود مجرد العقل"

د)- الفكر التاريخي ،السياسي والتربوي من حلال " مشروع السلم الدائمة" وكراسة " في التربية".

1- الترجمة – أو استضافة كانط عبر اللسان العربي –

لأن اللغة هي الحاوي بامتياز لأفكارنا، كانت اللغة الألمانية في بنائها السيميائي النفسي والتاريخي حاملة لفكر كانط، وكانت الترجمة إلى العربية سبيل الولوج إلى تلافيف هذا الفكر، فأقبل المفكرون العرب على الترجمة مثلما أقبل أجدادهم في

العصر العباسي على نقل كتب اليونان[2]، من دون أن يكون الحافز ذهبا ،لأن الرهان في هذه المرة أكبر من كل حافز مادي ،هو رهان الوجود والتواجد ضمن المنظومة الفكرية في الخريطة الكونية للإنسان المعاصر، فترجموا أهم كتب كانط النقدية منها في العقل والعمل والحكم والأخلاقية في فلسفة التربية والتاريخ والسياسة:

ففي الفلسفة النظرية أقبلت الكاتبة " نازلي إسماعيل "على ترجمة كتاب المبادئ " prolégomènes" سنة 1968 انطلاقا من الفرنسية ثم رجوعا إلى ألمانية عبد الرحمان بدوي الذي راجع هذا العمل والذي انتقده بعنف "فؤاد زكريا"[3]. كما وجدت ترجمتين أساسيتين لـ" نقد العقل الخالص" :الأولى تلك التي أنجزها أحمد شيبان سنة 1965 التي استعمل النص الانجليزي، والثانية تلك التي أنجزها موسى وهبة وهي ترجمة جديدة من النص الألماني[4].

وفي الفلسفة العملية عثر على ترجمة لثلاث مقالات حول مسالة ميتافيزيقا العادات: الأولى تنسب للسوري حكمت حمسي والتي لا تاريخ لها. والثانية لشامباطي سنة 1965 والتي أنجزها من خلال قراءة دالبوس Delbos بالفرنسية (يتعلق الأمر هنا بتأسيس ميتافيزيقا العادات). أما الثالثة ففي ذات السنة 1965أنجز عبد الغفار المكاوي ترجمة لذات العمل" تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" معتمدا على سند ألماني[5].

أما فيما يتعلق ب " **نفد العقل العملي** " فهناك ترجمتان أساسيتان:

الأولى تلك التي أنجزها الكونت الاسباني De Jlarsa، هذا المفكر الذي وهب لجامعة القاهرة سلسلة من الدروس (في شكل مخطوطات) ما بين 1919–20 حول الفلسفة الأخلاقية لكانط والتي تظهر في نهاية المطاف كنقلة شبه أدبية للنص الكانطي.

و الثانية في سنة 1966 أين قدم الشيباني ترجمة لنفس النص[6].

وفي التربية والتاريخ والسياسة، ترجم الطنطاوي سنة 1924 " تفكير حول التربية " réflexion sur l'éducation. وقد خطي " مشروع السلم الدائم Le projet d'une paix perpétuelle "بثلاث ترجمات: الأولى من طرف عثمان أمين سنة 1952، والثانية

أنجزها نبيل الكوري سنة 1985 أما الثالثة فقام بها علال بوعزيز سنة [7] 1966.
وأخيرا تحصلنا على ترجمة " نقد ملكة الحكم "منجزة من طرف غانم هنا سنة 2005.
ويبدو من خلال هذا المسح التاريخي لما أنجز من ترجمات لمؤلفات كانط، أن الترجمة –في بدايتها– اتجهت إلى ما هو أخلاقي وتربوي في مؤلفات كانط بدءا، ثم من بعد ذلك إلى كتبه النقدية، وفي هذا التوجه يتجلى الهاجس الأخلاقي في الفكر الفلسفي العربي الذي بدأ يستشكل الكثير من المفاهيم والتصورات الموروثة في مرجعيته الأخلاقية والتي كثيرا ما تعامل معها بسلطة الموروث لا بسلطة العقل، فراح يترجم النصوص الكانطية عله يجد ضالته في مضامينها ،فكانت الترجمة –نتيجة ذلك– ضرورة إستراتيجية لمواجهة الراهن الفكري العربي أكثر منها ضرورة معرفية .

2– الدراسات المنجزة – أو مساءلة الأنا العربي للفكر الكانطي –

لم يكتف المشتغلين بالفلسفة في العالم العربي بترجمة كتب كانط، بل درسوا وعلقوا وألفوا الكثير انطلاقا من النصوص الكانطية، التي كانت بمثابة الأداة المنهجية لتفكيك ودراسة ومقاربة الواقع الفكري في العالم العربي في غضون القرن العشرين، من منظور عربي لـ " الأنا" المختلف عن البناء الفكري والتاريخي والسوسيولوجي لفكر كانط. وقد يكون من الصعب ملاحقة آخر ما ألف حول كانط إلا أننا – لضرورات منهجية– نكتفي بذكر أبرز المشتغلين على كانط:

أ–**في الفلسفة النظرية أولا: زكريا إبراهيم** الذي ألف سنة 1963كتابا عنوانه " كانط و فلسفة النقد " أين اعتبر الفلسفة النقدية الكانطية بمثابة " عقلانية جديدة مفتوحة"، وهي– في نظره– منهج أكثر منها اعتقاد ثابت، كما بين أن للنقد دورا مزدوجا: تأسيس العلم في مقابل التيار التجريبي.

انقاد الميتافيزيقا ضد الميتافيزيقيين أنفسهم[8]

صادق جلال العظم: الذي أنتج عدة دراسات بالعربية (إضافة إلى تأليفه باللغة الانجليزية) والتي تناولت بالخصوص "الزمان والمكان الكانطيين"، وانطلاقا من ذلك

اصدر سنة 1964 مقالا بعنوان " تصورات الزمان في الفلسفة الكانطية "الذي عالج من خلاله " الزمن النقدي " ونظرية السماء la théorie du ciel. وفي كتابه " الفلسفة الغربية المعاصرة" 1966 افرد فصلا حول المكان عند كانط الذي هو تكملة للعمل الأول، وفي 1967 أتجه للاشتغال فقط على التصورات الكانطية للزمان في المرحلة السابقة للنقد[9]. أما **عبد الرحمان بدوي**: هذا المفكر الموسوعي الذي خصص لكانط سلسلة من الدراسات، الأولى صدرت سنة 1977 اهتمت بالفلسفة الكانطية النظرية، والتي أشاد فيها بمكانة كانط قائلا " كانط هو أرسطو الأزمنة الحديثة" وتعرض بعدها لنسقه السابق للنقد (précritique)ومن بعدها إلى " نقد العقل الخالص في شكله الجدلي[10].

مراد وهبة: الذي نشر سنة1979كتاب بالفرنسية عنوانه : le systéme kantien " النسق الكانطي "الذي يحدد بدقة أن المسالة الكانطية الأساسية هي تلك المرتبطة بإمكانية قيام الميتافيزيقا كعلم، وإن المشروع الكانطي هو في الأساس تحديد المبادئ الميتافيزيقية للمعرفة بطريقة نسقية باستعمال تحليل الترانسندنتالي. وانطلاقا من هنا يعرض الكاتب محتوى ثلاثة فصول لنقد العقل الخالص وينهي نصه بنقد الطابع المغلق (caractère clos) للنسق الكانطي[11].

محمود رجب: الذي خصص الفصل الثالث من كتابه " الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين " 1986 لكانط. وهو يعتقد أن فيلسوف القرن 18 ايمانيال كانط قد أثر كثيرا على الفلاسفة الحاليين في تناول مكانة الميتافيزيقا، وناقش التصور الكانطي لهذا الفرع الفلسفي ومؤكدا أن كانط لم يدمر الميتافيزيقا ولكنه وضع الأدوات التي تمنع أخطاء الميتاقيزيقا "[12].

محمود زيدان: في كتابه " الفلسفة النظرية الكانطية " (لا توجد سنة النشر)، جاء هذا الكتاب كتبسيط vulgarisation وتعريف بنقد العقل الخالص الذي يحدد هدفه ويعرض محتواه خاصة في تأثير نيوتن على كانط [13].

عبد القادر باشطة: تناولت أعماله بالخصوص نقد العقل الخالص في علاقته بالفكر السابق للنقد، وكتابه الرئيسي " المكان والزمن عند نيوتن وكانط (الطبعة الأولى ظهرت سنة 1991) والثانية بدار l'harmattan paris 2002 أين يبرز – خلافا لما هو متعارف عليه– ما يربط الفكر الكانطي بالفيزياء النيوتونية في حساب اللامتناهي؛ هذه النتيجة التي تندرج ضمن إشكالية العلاقة بين الفيزياء والرياضيات (من منظور كانطي) والتي دفعت بالكاتب إلى تأليف مجموعة مقالات بالعربية وبالفرنسية من أجل تأكيد وجهة نظره، والنتيجة أن الأطروحة المدعمة لا تستلزم القطيعة بين العلمين الذين جمع بينهما كانط بدقة[14].

منحت الفلسفة الكانطية للمفكرين العرب في شقها النظري هذا، الإطار الابيستيمي والاداتي لمقولات العقل في النقد أولا من أجل إعادة البناء والتأسيس لـ" الأنا" في علاقته بالميتافيزيقا والطبيعة والآخر.

ب– في الفلسفة العملية (الأخلاقية) ثانيا: توفيق الطويل،الذي نشر سنة 1967 كتابا بعنوان :الفلسفة الأخلاقية، نشأتها وتطورها، جاء هذا الكتاب مقسما إلى جزأين: الأول خصص للفلسفة الأخلاقية عند الأقدمين، والثاني للفلسفة الأخلاقية عند المحدثين، أين تطرق للفلسفة الأخلاقية عند كانط، واعتبر أن طابع الدقة والصورية اللذين اتسما بهما النسق الكانطي يدعونا إلى ضرورة محاولة الإفلات من هذا الميل الكانطي للعقلانية المفرطة بتأسيس أخلاق تأخذ بعين الاعتبار طاقات الإنسان وقيمه الاجتماعية التي تزاوج عند الإنسان بين العقل والحساسية [15].

عبد الرحمان بدوي: وبنفس الأسلوب التبسيطي والتوضيحي، كرس المؤلف سنة 1979 جزءا من أبحاثه للفلسفة العملية لكانط أين تناول بالتحليل والتبيين التصورات الأخلاقية في الإرادة الطيبة والواجب...الخ وحلل الانتقال من الفلسفة الأخلاقية الشعبية إلى ميتافيزيقا العادات وهذه الأخيرة إلى الفلسفة العملية، مبرهنا من خلالها على تمكنه من اللغة الألمانية[16].

عثمان أمين: في كتابه " رواد المثالية" وفيه تطرق إلى العديد من المفكرين من بينهم كانط. حيث ركز المؤلف على التصور الكانطي للحرية وأبرز أن هذا الأخير مرتبط ارتباط حميميا بالحقيقة كما يتصورها كانط، وأنه يتضمن الجذور الحقيقية للتصور الكانطي للتاريخ. وفي هذا التعليق ناقش أيضا العلاقة عند كانط بين الحرية والدولة من منظور الفلسفة الكانطية والتي تتواجد على حدود الهيغيلية [17].

ج – الفلسفة الجمالية

توفيق شريف: ألف بالفرنسية كتابا عنوانه "علم الجمال والنقد عند كانط "esthétique et critique chez kant (1995) وحاول المؤلف مناقشة إشكالية العلاقة بين التصورات؛ هل تعبر عن ضرورة تفرضها النصوص الكانطية ؟ وبالتالي كيف يمكن لمثل هذه العلاقة أن تمثل اهتمام نظري في التحليل الكانطي للجميل وللحكم؟ نجد في هذا العمل نقدا دقيقا للتأويل السائد الذي من خلاله انتقد كانط علم الجمال الكلاسيكي للوصول إلى نظرية شكلية تبقي على آثار الموروث (الماضي)، كما اعتبر السيد شريف أن الاستيتيقا الكانطية ليست مثلما نظن تكرار بسيط للأطروحات الكلاسيكية، كتلك العقلانية الممثلة بين ليبنيتز Leibniz وبومجاتن Baumgarten، أو الحسية الممثلة بين بيرك Burke وهوم[18];home

أميرة حلمي مطر: التي أصدرت كتابا بعنوان " الاستيتيقا: ممثلوها وميولاتها 2002" أين احتل كانط القسم الأول من الفصل الثاني. وفي هذا النص حددت الكاتبة هدف كانط والذي يتمثل في الكشف من –منطق الذوق– لعلاقة بين مجالات المعرفة والأخلاق. وصولا إلى ملخص عميق لـ "نقد ملكة الحكم " والذي بينت من خلاله مضامين هذا الكتاب المشتملة على المبادئ الأولى لميتافيزيقا الذوق، والتي سمحت لكانط بوضع جسر بين عالم الضرورة المرتبط بالعلم وعالم الحرية أي " الأخلاق ". ويعد النقد الثالث (نقد ملكة الحكم) وسيط بين نظرية الفهم وفلسفة العقل، وهذا ما يفسر ارتباط الإحساس باللذة وبالمعرفة والإرادة. وقد انتقلت بعدها الكاتبة إلى المشكل اللاهوتي وبينت

أن كتاب كانط –موضوع الدراسة– يسمح بتأسيس مختلف للحكم مقارنة بما يصدره الفهم، لأنه ليس في علاقة بالمقولات التي تسمح ببلوغ الكوني، وأن الحكم الذي تدرجه " نقد ملكة الحكم" يخاطب – على النقيض– الجزئي بإتباع طريق الغايات ولهذا أعلنت السيدة أميرة مطر وحللت بطريقة جد ديداكتيكية الأقسام الكبرى للنقد الثالث[19].

محمود سيد أحمد: وكتابه "الغائية عند كانط " تاريخ النشر غير وارد، بين محمود سيد أحمد أن المبدأ الغائي هو ذاتي عند كانط ولا يمكن تطبيقه على الطبيعة الموضوعية وهي مجرد فكرة بسيطة لها صلة بالحكم المنعكس. اتبع المؤلف الفكر الغائي الكانطي عبر الفلسفة العملية بإنشاء يسمح لكانط بتقريب الفلسفة العملية مع تلك المتعلقة بالطبيعة. وفي سياق إشكالية العلاقة بين الغائية ووجود الله، بين لنا الكاتب انه على نقيض المفكرين والفلاسفة الذين اعتقدوا أن الغائية الطبيعية تسمح بإثبات وجود إلاه، فان كانط بين أن الأخلاق وحدها وليست الطبيعة، تمنحنا الأداة للوصول إلى الهدف[20].

في التاريخ والتربية والسياسة والدين:

فلسفة كانط في التاريخ والتربية والسياسة والدين كانت هي الأخرى مجالا خصبا للدراسات في الفكر العربي من أجل توطين " الأنا" العربي توطينا عقلانيا في التاريخ والدين والسياسة مثلما توضحه الدراسات الآتية:

عثمان أمين: اهتم في خضم اهتماماته بالمثاليات: بَيَنَ الكاتب أن الفلسفة الكانطية للتاريخ وصلت إلى قمتها في نظرية الحق (1795) وهو يعتقد أن التصور الكانطي قائم على علاقة بين الحريات الفردية والوطنية والتي تجد أعلى درجاتها في السلم الدائم (1795)، وكما بين المؤلف ذاته وجود علاقة بين فلسفة التاريخ والفلسفة العملية من المنظور الذي تتضمن فيه فلسفة التاريخ شكلا من أشكال الرجوع إلى الأمر القطعي.

صادق جلال العظم: ألف سنة 1990 كتاب بعنوان " من أجل الدفاع عن المادية والتاريخ "، أين تطرق إلى الفكر التاريخي الكانطي وعالج " الفينومينولوجيا الكانطية phénomenisme kantien التي اعتبرها أعلى من عدمية (nihilisme) توماس كوهن

Thomas Kuhn، فبالنسبة له بقي كانط سجين ما نسميه بـ " المثالية الموضوعية" في حين أن الموضوعية غائبة كليا عند المفكر الآخر[21].

أما فيما يتعلق بالفكر السياسي عند كانط فيمكن ذكر محمود السيد في كتابه " دراسات في الفلسفة السياسية الكانطية" الذي صدر سنة 1988، وعبارات الكاتب جاءت أغلبها مدحا، حيث يعتقد أن كانط –في هذا المستوى– قريب جدا من الحياة السياسية الفعلية و أن تاريخ الفكر السياسي في ألمانيا بدأ فعليا وجديا مع كانط، ويحدد علاوة على ذلك أن الفلسفة السياسية الكانطية على صلة وثيقة بفلسفته العملية التي تتأسس في مجملها على أسس عقلية [22].

وفي سياق انشغالات المفكرين العرب الراهنة، جاءت اهتماماتهم –بصورة ملحة– بفلسفة كانط في الدين ،مثلما توضحه الدراسات الآتية:

حسن حنفي: حيث كرس فصلا من كتابه " المشكلات المعاصرة" (السنة ؟؟؟؟) وفكر حول نص كانط " الدين في حدود مجرد العقل"، تساءل هذا المفكر عن سبب تأخر ظهور هذا المؤلف في سنة 1793 أي بعد انتهاء كانط لمشروعه النقدي سنة 1790، والجواب هو أن المفكر أراد أن يطبق النقد على الدين ولذلك يتحدث الكاتب على مرحلتين

موقف كانط قبل النقد

موقف نفس المفكر في مرحلة النقد ويبن أن كانط هدم أولا المعرفة (نقد العقل الخالص)، وليؤسس بعدها قواعد الاعتقاد (نقد العقل العملي) ويثبت وجود الله في النقد الثالث، ليصل بعدها إلى النص المقصود ويحلل ظهور فكرتي الخير والشر التي يتبناهما كانط و التي عادة ما تستعمل كشكل من أشكال التسلط على البشر (سلطة القيم).

أنهى السيد حنفي دراسته ببعض الملاحظات :أن كانط يظهر في نهاية الأمر في كتابه الذي اهتم فيه بالتصور اليهودي للدين مبينا بعدها عمق الفكر الأخلاقي عند كانط.

أما رؤية **محمد عثمان الخشت** فهي أكثر عموما ،"فلسفة الدين في ضوء قراءة جديدة للنقد الكانطي" (سنة ؟؟؟؟)و في نصه هذا يناقش الكاتب الأفكار الأساسية الآتية:

– التفسير الآلي (الميكانيكي) للدين الطبيعي.

– تعرض كانط لنقد طرق الاعتقاد وتبيينه للمنهج الكانطي في قراءة النص المقدس، ثم تناول بعدها –بالشرح والتحليل– المعتقدات المسيحية بين التأويل والنقد[23].

كما خصص الدكتور " **الربيع ميمون**" في كتابه "نظرية القيم في الفكر الفلسفي المعاصر" الصادر سنة 1980 الباب الثاني حشو للحديث عن فلسفة القيم عند كانط وقد انطلق من مقولة اميل برييه " أن فلسفة القيم التي ظهرت في عصرنا ليست سوى ذيل للفلسفة الكانطية التي كانت ثورة على الفلسفات السابقة "[24].منبها أن مفهوم القيمة في فلسفة كانط مستقل عن الوجود، لكنه حاول أن يقرب بين قيم الجمال والطبيعة في كتابه " نقد ملكة الحكم"، فالقيمة هي ما يجب أن يكون وما يستحق أن يكون وليست هي الكائن في فلسفة كانط، كما أشار إلى أن كانط لم يأت بالجديد في دراسة القيم بل بقي – من حيث تصوره لها – في إطار من سبقوه و لم يعالجها في ذاتها بطريقة غربية.

أما **عبد الرحمان بدوي** فقد ألف كتابا في هذا الصدد " فلسفة الدين والتربية عند كانط 1980، القسم الأول من هذا العمل يلخص الفكر الديني الكانطي ويؤكد على فكرة الصراع بين الخير والشر، أما القسم الثاني فقد خصصه لفلسفة التربية أين وضح علاقة كانط بـ "بازدوف" Bazdof من جهة و"روسو" Rousseau من جهة أخرى قد ميز –في دراسته هاته بين – ثلاثة مستويات من الفكر الكانطي في التربية تلك المتعلقة بالجانب النظري والأخرى بالجانب العملي والثالثة المرتبطة بالشأن الديني.

أمّ الزّين بنشيخة – المسكيني في كتابها " كانط راهنا" أو الإنسان في حدود مجرّد العقل" 2006 وهو كتاب سعت الكاتبة من خلاله إلى توجيه التّفكير في "وجهة تدلّنا على صورة لكانط أكثر قابليّة للاستعمال في مواجهة مشاكل الإنسان المعاصر" (كانط راهنا،

ص12) وهو من الكتب الفلسفيّة الّتي تطرح بأسلوب جديد أسئلة الرّاهن العربي، أي فضاء التّجربة العربيّ (أو ما تسمّيه المؤلّفة "فضاءاتنا المثقوبة")[25]، في أفق انتظار مختلف يتجاوز وطأة الانتماء وثقل ذاكرتنا التّاريخيّة وخطر الهويّات القاتلة والأصوليّات الرّهيبة، وينفتح في الآن نفسه على إمكانات جديدة كالمواطنة الكونيّة في العالم وفنّ العيش معا وتدبير المستقبل.

وبالموازاة مع ذلك اهتمت **بعض المجلات الفلسفية في العالم العربي** مع قلتها بكانط، نذكر منها المجلة المصرية " أوراق فلسفية " التي خصصت عددها السادس لسنة 2002 لهذا الفيلسوف بعنوان "كانط و المثالية الألمانية".

وبزمن غير بعيد تناولت المجلة الفلسفية الجزائرية " أيس" في عددها الأول سنة 2005 كانط معنونة العدد ب " كانط فيلسوف العقل والسلم" وشارك في هذا العدد الكثير من المختصين في العالم الغربي والعالم العربي بالفكر الكانطي من بينهم فيراري J.Ferrari والأب مارتي le père Marty، والأستاذ مولفي من الجزائر وغيرهم بتحاليل ودراسات مشيدة بمكانة كانط من خلال: مشكلة كانط ومسألة الإنسان.

مشكلة العدالة العالمية – طريق السلم وفق الفكر السياسي الكانطي[26].

ونظمت حول فكر هذا الفيلسوف العديد من **الملتقيات الدولية** للتدارس بالنقاش والحوار بين المختصين في فكر هذا الفيلسوف، فنظم المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس في الفترة الممتدة ما بين 8-11ديسمبر 2004 ملتقى دولي بعنوان، "كانط الأنوار ونحن" حيث شارك فيه العديد من المختصين أمثال جون فراري J.Ferrari والأب مارتي le pére Marty فكانت موضوع مداخلة الأول " les lumières dans le clair classeur de l'Aufklärung " بينما الأب مارتي فقد تطرق إلى مفهوم الكوسموبوليتيك la notion du cosmopolitique chez Kant .

كما انعقد الملتقى السنوي للمؤسسة التونسية للفلسفة في مارس 2004 وجعل من إشكالية " كانط والحداثة" محورا لدراساته، وقد شارك فيه كبار المختصين في الفلسفة الألمانية بصفة عامة وفي فلسفة كانط بصفة خاصة.

يضاف إلى ذلك العشرات من الأبحاث الأكاديمية لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه التي تناقش سنويا حول هذا الفيلسوف عبر مختلف أقسام الفلسفة في الجامعات العربية.

كانط أو "براديغم" النقد في الفكر الفلسفي الأخلاقي عند العرب:

وأمام هذا التواجد الكانطي في الحقل الفلسفي العربي، يتجلى بوضوح أن ما أتى به كانط هو عمل ابيستيمي غير مسبوق يمتاز بالجدّة والأصالة، وتتجلى الأصالة أول ما تتجلى في النقلة التي أحدثها كانظ في مفهومه للنقد نفسه وفي ممارسته له بطريقة جديدة ومغايرة، ذلك أنه مع النقد الكانطي ننتقل من نقد (الكتب والمذاهب) إلى نقد (العقل نفسه) أي نتخطى نقد المعارف إلى نقد الآلة التي بها نعرف"[27]... وإذا كان مشروع كانط منصبا على العقل المحض/ الخالص/ المجرد عن أي صفة معرفية أو مذهبية، فإن المفكرين من بعده قد أفادوا منه في نقد العقل المختص معرفياً أو المنتمي مذهبياً بعد تجريده من كل تجسيداتها الواقعية والإمساك بالمعالم النظرية لذلك العقل، فصار هناك نقد العقل العلمي ونقد العقل السياسي، ونقد العقل الصناعي، ونقد العقل الوضعي، ونقد عقل التنوير، ونقد العقل الديني....نقد العقل الاسلامي ونقد العقل العربي الخ. وكلها تتجه إلى فحص النظام المعرفي المبنى على مسلمات وأصول معينة، هذه المسلمات والأصول هي المنتجة والمشكّلة للمقولات في ذلك الحقل المعرفي. من هنا جاء مشروع الجابري وأركون في نقد العقل العربي / الإسلامي، حيث تحول نقد التراث عبر مشروعهما، من نقد المسائل والمقولات التراثية إلى فحص وتحليل النظام المعرفي الذي أنتج تلك المسائل والمقولات....من مناقشة التصورات الدينية في التراث إلى مناقشة النظام الفكري العميق، أو الأنظمة الفكرية المنتجة للتصورات الدينية في التراث الإسلامي[28] .هذا هو الانعطاف النقدي الجديد الذي حصل مع الجابري

وأركون ومع هذا التوجه الجديد صار الهدف هو دراسة المنهج، أي بنية العقل الديني وطريقة اشتغال آلياته وليس مضامين الشريعة والعقيدة بحدّ ذاتها، فمسائل الشريعة والعقيدة كما يقول أركون "قد تختلف، ولكن الجذور المعرفية واحدة"، أو بتعبير آخر؛ "ليس الاهتمام بالأفكار ذاتها، وإنما بالأداة المنتجة لهذه الأفكار"[29]. والهدف النهائي من هذين المشروعين، هو معالجة إشكالية ثنائية (التراث والحداثة) في الفكر الإسلامي، من خلال تهيئة أو تمهيد أرضية تراثية يمكن لها أن تستقبل الحداثة دون تصادم أو ممانعة. ولهذا ينصب نقدها ومراجعتها وقراءتها وإعادة الصياغة والتكوين للتراث دون الحداثة. وبالتالي صياغة ذات عربية تراثية يمكنها أن تتوافق وتنسجم مع الحداثة المعاصرة.

وهذا يعني إزالة كافة الأطر والسياجات (العوائق الابستيمية) الدينية والتراثية (الفاسدة والصحيحة على حدّ سواء)، والتي طالما كانت تحول المسلم من الدخول في فضاء الحداثة. وبنفس التوجه، كان براديغم النقد الكانطي محركا للعديد من المشاريع الفكرية في العالم العربي على شاكلة المفكر الفيلسوف العربي حسن حنفي في مصر.

في مشروعه «من العقيدة إلى الثورة» والفيلسوف العربي الكبير سوري الجنسية هو طيب تيزيني ومشروعه الأول بعنوان «الفكر العربي من التراث إلى الثورة» والذي يسعى لتعزيزه بمشروع آخر «من التراث إلى النهضة». هذه نماذج. وهناك أعلام بارزة في الفلسفة العربية كمحمد عزيز الحبابي وهو«فيلسوف مغربي» من الفلاسفة الشخصانيين العرب، وله إسهامات كبيرة، والدكتور زكي نجيب محمود، وأبو يعرب المرزوقي، وفتحي التريكي فيلسوف تونسي، مؤسس فلسفة التعدد والتنوع. وصلاح قنصوة في مصر، وناصيف نصار وأدونيس العكرة في لبنان، وحسام الألوسي، وعبد الأمير الأعسم في العراق، وغير هؤلاء من الفلاسفة الكثيرين الذين لا يمكن الإحاطة بأعدادهم، وبملاحظة هذه الأسماء التي ذكرت ثمة – قديماً وحديثاً – تبلور المشروع الفكري الفلسفي أو ما يطلق عليه تجديد الفكر الديني. جاعلين نصب أعينهم سؤال الشأن الديني: إلى أي مدى يمكن أن نفصل فعل الفلسفة خارج محيط الفكر الديني ؟ إن إنجازات الحداثة العربية، على

المستوى الفلسفي، ومنذ كانط إلى فلسفة الاختلاف، قدمت إمكانات كثيرة لنقد آليات اشتعال المطلق وتمركز المتعالي وتأسس الأسطورة.

وإذا كان شعار الاختلاف يرفع من حين لآخر لضرورته التاريخية والفلسفية، فإن منطق الفكر العربي ما زال بعيد عن صياغة المفهوم لصالح الاستقلالية التامة للإنسان والمعرفة العقلانية، ضد كل ميتافيزيقا تحاول إلغاء الاختلاف ذاته، وبالتالي العقل النقدي. فالاستيعاب العميق للفكر الحداثي والما بعد – حداثي سيساعد على بناء تصور للاختلاف من داخل الواقع التاريخي والاجتماعي. تلك هي ميتافيزيقا الهوية التي تحكم كل فكر مثالي وكل فلسفة متعالية قد تتكلم عن الاختلاف في المطلق من أجل اغتياله ضد العلم التاريخي الناقد لكل ميتافيزيقا تماثلية ما زالت تحاصر الفكر العربي، وتكرس المبدأ الواحد في الوجود والثقافة والسياسة. ولا ننسى أن الكثير من النظريات الفلسفية الرائجة في الوطن العربي مازالت تنهل من منطق الواحد والوحدة الذي نظر له كل من أفلاطون وبارمينديس وأفلوطين وابن سينا وغيرهم. وبدون تجاوز منطق الهوية ومبدأ الوحدة وفرض استقلالية العقل النقدي الاختلافي فلن يستطيع الفكر العربي التحرر من سلطة التراث واللامعقول تماشيا مع ما أسسه الفيلسوف الألماني كانط، الذي كان أبرزَ فلاسفة التنوير الأوربي.

الهوامش:

[1]– د.ام الزين بنشيخة– المسكيني ،كانط راهنا المركز الثقافي العربي 2006 ص10.

[2]– كان الخليفة المأمون يشجع على ترجمة كتب الفلسفة ،فيعطي كل من يترجم كتابا فلسفيا وزنه ذهبا.

[3]– المجلة العربية " أرواق فلسفية العدد 6، ص12 سنة 2002.

[4]– المرجع السابق ص11، ترجمة موسى وهبة من النص الألماني ل سنة 1787 نشرت من طرف مركز الإنماء القومي (دون تاريخ النشر).

[5]– أوراق فلسفية المرجع السابق ص12.

[6]– المكتبة الوطنية بالقاهرة و فيما يتعلق بالشيباني ،دار اليقظة القاهرة 1966.

[7]– المكتبة الوطنية بالقاهرة.

[8]– زكريا إبراهيم :كانط و فلسفة النقد القاهرة (لا وجود لتاريخ النشر).

[9]– أوراق فلسفية ص26–27.

[10]– كانط دار الكلام كويت 1977، فقد غطى هذا المفكر كل الفكر الكانطي.

[11]– مترجم للعربية بعنوان "المذهب في فلسفة كانط لـ نادمي لوقا دار نشر انكلو المصرية القاهرة 1979.
[12]– الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين دار المعارف القاهرة 1986.
[13]– فلسفة كانط النقدية دار المعارف (لا وجود لسنة النشر).
[14]– الطبعة الأولى ظهرت بجامعة تونس و الثانية بباريس و هذه الأخيرة مختلفة قليلا عن الأولى و تمنح فكرة عن التطور الذي قام به الكاتب.
[15]– فلسفة الأخلاق دار النهضة العربية القاهرة 1967.
[16]– اللجنة العربية للترجمة بيروت 2005.
[17]– رواد المثالية دار المعارف القاهرة 2002.
[18]– منشورات الجامعة التونسية 1995.
[19]– فلسفة الجمال، الحياة العامة للكتاب القاهرة بدون تاريخ.
[20]– الغائية في الفلسفة كانط دار الثقافة القاهرة السنة ؟؟
[21]– دفاعا عن المادية و التاريخ ،دار الفكر الجديد بيروت 1997.
[22]– دراسة في فلسفة كانط السياسية دار الثقافة القاهرة 1988.
[23]– فلسفة الدين مكتبة غريب القاهرة (السنة ؟؟؟؟)
[24]– الربيع ميمون نظرية القيم في الفكر الفلسفي المعاصر (بين النسبية والمطلقية) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980.
[25]– أمّ الزّين بنشيخة . المسكيني كانط راهنا ص12.
[26]– أيس" العدد الأول جوان مجلة فلسفية تصدر عن دار الصحافة 2005.
[27]– مقدمة موسى وهبة لكتاب "نقد العقل المحض" . ومحمود فهمي زيدان، كانط وفلسفته النظرية، ص41.
[28]– عبد الله الفلاحي، نقد العقل بين الغزالي وكانط، ص200.
[29]– طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة (178/1)